الكرم

إن لفظة « الجود » التى وردت فى قانون الفروسية الغربية بمعنى « السخاء » ، لا تكفى للتعبير عن جود العرب ، ونحن نؤثر عليها لفظة « الكرم » ، فهى أوسع معنى وأكثر دلالة على كل ما هو نبيل الطبيعة ، وكل ما يصدر عن وجدان رقيق كريم . وإذا فهمنا لفظة الكرم على هذا النحو ، رأينا أنها تشمل :

أولا — السخاء أى الميل إلى الإعطاء ، وهو ما سنطلق عليه « كرم اليد » .

ثانياً — الكرم الذى هو سجية الحر ، أى المتسامح ، وهذا ما سنطلق عليه « كرم النفس » .

ثالثاً — العفو عن الذنوب ، والشهامة إزاء العدو ، وهو ما سنطلق عليه « كرم القلب » .

وسنستعرض فى إيجاز مظاهر كرم اليد والنفس والقلب عند العرب .

١ — كـــرم اليد

يقول فوربيل « كان السخاء أسمى فضيلة يتحلى بها الفارس بعد شجاعة تتفوق على كل حرص . ولم يكن المهم هو أسلوب التحصيل .

فلقد روى الشاعر « ريمبو » Raymbaud يوماً السيد « مالاسبينا » بأنه قاطع طريق وسارق ، فرد قائلا : « أجل ، والله يا ريمبو ، إنى لأعترف بأننى كثيراً ما اختطفت مال الغير ، ولكن رغبة منى فى الإعطاء لا فى الإثراء واكتناز الكنوز . » ولقد عمد الشعراء إلى الحث على السخاء ومدح الجود بين أبطال العصور الوسطى ، بكل ما أوتوا من بلاغة . وهذا أحدهم يخاطب فتى يتوق إلى أن يصبح فارساً ، فينصحه هذه النصيحة « انفق عن سعة ، ولتكن لك دار جميلة لا باب لها ولا مفتاح ، ولا تستمع للخبثاء يشيرون عليك بأن تقيم عليها بواباً يضرب بالعصا تابعاً أو خادماً أو شريداً أو منشداً يريد أن يدخل » . ويقول « برتران دى بورن » Bertrand de Born . « إننى أعتبر فتى نبيلاً السيد إذا كثرت نفقات بيته . إنه فتى إذا وهب فأغدق ، وإذا أحرق القوس والسهم . وأما الهرم فهو السيد الذى لا يغامر بشىء ، والذى يكنز القمح والدهن والشراب ، بل إنه الذى لو كان لديه فرس ، قال : إنه فرسى »[1] .

ولم يكن بالعرب حاجة — لكى يهبوا ويبذلوا — إلى مثل هذا الحث الشديد . لقد كانوا يهبون عن طبيعة فيهم ، كانوا يهبون بالسليقة ، ويهبون جرياً على تقاليدهم ، ويهبون إذ تهزهم الرحمة ، ويهبون ابتغاء لطرب المتعة وحسن الذكر وبعد الصيت . ولم تكن بهم حاجة أيضًا إلى أن يتعلموا من الشعراء كيف يمنحون ، فلقد كانوا يسرفون فى الإعطاء ويتلفون ،

---

(١) فوريل : تاريخ الشعر البروفنسى ، ج ١ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ .

لا يحسبون حساباً، أو يلتمسون جزاء . ولم تكن حسناتهم تقاس على قدر ثرائهم — لأنهم كانوا يمعنون فى الإحسان حتى يحرموا أنفسهم من ضرورات العيش، بدلاً من أن يرفضوا لسائل سؤلاً — أو تقاس بالنسبة إلى طلب من يقصدهم ، لأنهم كانوا يزعمون أن الهبة ينبغى أن تكون جديرة بالواهب دون التفات إلى درجة احتياج المنكوب الذى استغاث بهم . وما كانوا يزنون عطاياهم ، بل كانوا يخلعون على الفقير من اللباس ما يكسوه ويتيح له أن يكسو أفقر منه ، وكانوا يعهدون للمعوز من المال ما يغيثه ويتيح له أن يغيث أشد منه إعوازاً . وكأنى بالعرب قد أعلنوا الحرب على الفقر : يفضحه الفقراء للأغنياء، فإذا بالأغنياء يتعقبونه توًّا ، وينهكونه بوابل من سهام أريحيتهم ، فيستسلم ، ويضطرونه إلى أن يلقى أسماله ، وأن يرفل فى الذهب والحرير ، وأن يستبدل بلهجة البغض والحقد آيات الشكر والثناء .

وكان السخاء لديهم ينطوى على ثلاث صفات جوهرية وأساسية ، هى السرعة والتبذير والاستخفاء . فما كان يجوز لهم أن يتوانوا عن سائل أو يعطلوه أو يعللوه بالوعود ، إذ أن الوعود سحاب لا بد أن يهمى غيثها حتى ترتوى أرض الحاجة الممحلة . ويقول « روترو » Rotrou : « إنك تنقص قدر الحسنة التى ترجئها » .

وكان عليهم أن يغدقوا إغداقاً ، وذلك لا يعنى كمية الهبة أو عدد ما تشتمل عليه مثل ما يعنى أصل الهبة ومصدرها . فلا فضل لمن أعطى نفلاً ، ووهب مما زاد عن حاجته أو مما تدره عليه أملاكه . إنما الكريم من أعطى فحرم نفسه ، وبذل من رأسماله ومن نصاب لوازمه . وهذه أقصوصة توضح ما نعنيه :

سئل قيس بن سعد : هل لقيت أكرم منك ؟ فأجاب . أجل ، لأن المنح لا يستحق الثناء ، إذا كان المرء موفور النعمة ، وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله . وأذكر إذ فاجأني الغيث يوماً أنني لذت أنا وصاحب لى بخيمة أعرابى . وكان الرجل غائباً فرحبت بنا زوجته ، حتى سمعت من بعيد صوت حصان فقالت : ها هو ذا زوجى . ثم أقبلت عليه قائلة : لقد رزقنا ضيفين . فترجل واتجه إلى عدد قليل من النوق غير بعيد ، فتخير إحداها ونحرها ، وقدم لنا الطعام . وراح ينحر لنا فى كل يوم ناقة رغم أنا لم نأت على سابقتها . وما كان منه حين نبهناه إلى ذلك إلا أن أجابنا قائلا : ليس من عادتى أن أقدم لضيفى مائدة الأمس . وقد بقينا على تلك الحال زمناً الجأتنا اليه العاصفة ، حتى كان يوم انتهزنا فيه فرصة غياب مضيفنا ، فرحلنا ، تاركين له كيساً به مائة دينار ذهباً ، بعد أن استأذنا زوجته .

وقطعنا من الطريق مسافة غير قصيرة ، وإذا بصوت يصيح بنا من ورائنا « أيها اللئيمان ، دونكما ! فقد والله أسقطتما قدرى إذ خلفتما لى عن قراكما أجرى ! » ولحق بنا فألقى الكيس بين أيدينا قائلا : « إليكما كيسكما ، خذاه وإلا أعملت فيكما رمحى ! » فلم نجد بداً من أن نرضخ لأمره ، إذ رأينا التصميم فى زجره .

وكانت ثالثة صفات السخاء هى الاستخفاء . قال النبى فى حديثه « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » الحديث .

وبديهى أن المعطى لا يصح له أن يفتخر بمكارمه ، وبديهى ايضا أنه على الآخذ أن يشيد بجود المنعم عليه ، بل ولقد كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة لرد الجميل وما أيسرها . وكان الشعراء يتكفاون بذلك . وفى كل جيل كان بين الشعراء والمحسنين سباق فى الكرم ، أولئك يتغنون باريحية هؤلاء ، وهؤلاء يكافئون مدائح أولئك ، وكلما رن ثناء الشعراء ، رنت معه آيات النعم . وفى ذلك ما يشرح بعض وقائع الجود الخيالية وبعض قصائد المدح المسرفة ، بين ما حفظ لنا ذكره التاريخ والروايات .

على أن العرب قد وجدوا السبيل إلى الاستخفاء فى فعل الخير ، قبل ظهور الإسلام بعهد طويل ، ورغم حرصهم على حسن الصيت . فلقد كان لديهم ما يشبه صندوق إغاثة المعوزين حالياً ، إلا أنه لم يكن يحمل أية تسمية تجرح كبرياء المعوز ، وكان يغذيه لعب الميسر . فقد كانوا يلعبون الميسر بتسعة سهام ، يعرف كل منها باسم معين ، وتوضع كلها فى جعبة ، يتناول منها كل لاعب سهماً . وكان الرهان حيواناً ، هو فى أغلب الأحيان جمل ، فكان ينحر ويوزع لحمه على المساكين . كانوا إذن يلعبون الميسر ، لا ابتغاء لمتعة المقامرة فحسب ، بل ابتغاء لمتعة إطعام البائسين أيضاً .

يقول لبيد :

وجزور أيسار[1] دعوت لحتفها   بمفالق[2] متشابه أجسامها

---

(١) أصحاب ميسر .

(٢) بسهام .

ادعو بهن لعاقر[1] أو مطفل[2] بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب[3] كأنما هبطا تبالة[4] مخصباً أهضامها[5]

وفيما عدا الميسر ، كانت للغرب طريقة خاصة فى المنح ، طريقة جماعية أيضاً ولكنها غير مستخفية . فكما كانوا يتبارون فى الافتخار بالأنساب ، أو يتبارون بالأسلحة ، أو يتسابقون أو يتعارضون بالقصائد ، كانوا يعمدون كذلك إلى منافرات ومباريات فى الكرم . ومن البديهى أن الهبات التى تسفر عنها هذه المباريات ، كانت لا تظل سراً مجهولا ، بل كانت على النقيض تجرى فى وضح النهار وتسيطر عليها الرغبة فى إظهار البذخ والأبهة حتى يتمكن الجمهور من الموازنة بين مناقب وحسنات كل من المتبارين الحاضرين. وكان الفوز لمن يجمع الملأ على الشهادة له بأنه أعظم الأسخياء ، رجلاً كان أم قبيلة . وكان ذلك شرفاً يخلد على مر القرون .

وفيما يلى مثل من منافرات الكرم ، سيلحظ القارئ فيه مرة أخرى تضامن القبيلة مع أحد أبنائها ، واشتراك الجميع بمواردهم وأموالهم وقرائحهم

---

(١) التى لا تلد .
(٢) ذات الولد .
(٣) الغريب .
(٤) واد مخصب من أودية اليمن .
(٥) أهضام : جمع هضيم ، وهو المطمئن من الأرض .

لنصرة واحد منهم . على أننا نلحظ فوق ذلك ، أن هذه المباريات التى تبدو لأول وهلة مثاراً للضحك ، كانت على العكس حفلات جليلة النفع ، فلقد كانت تعود بالقوت والعناية مدة أيام طوال على شعب بأسره من المساكين . وهنا — كما هو شأن جميع فضائل الفروسية عند العرب — كان الخير ينبع من التنافس ، التنافس فى إسداء الخير :

حدث بعد أن تشاجر حاتم وبنو لام[1] أن قالوا له : بيننا وبينك سوق الحيرة فنهاجدك ونضع الرهن ، ففعلوا ، ووضعوا تسعة أفراس رهناً على يدى رجل من كلب يقال له امرؤالقيس بن عدى . . ووضع حاتم فرسه ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة . وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائى ، فخاف أن يعينهم النعمان بن المنذر ويقويهم بماله وسلطانه للصهر الذى بينهم وبينه ، فجمع إياس رهطه من بنى حية ، وقال : يا بنى حية ، إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم فى مجاد أى مما جدته. فقال رجل من بنى حية : عندى مائة ناقة سوداء ومائة ناقة حمراء أدماء ، وقام آخر فقال : عندى عشرة حصن على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه . وقال حسان بن جبلة الخير : قد علمتم أن أبى قد مات وترك كل كثير فعلى كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا فى سوق الحيرة . ثم قام إياس فقال : على مثل جميع ما أعطيتم كلكم . هذا وحاتم

---

(١) الأغانى ، ج ١٦ ، ص ٩٥ وما يليها .

لا يعلم بشيء مما فعلوا . وذهب حاتم إلى مالك بن جبار ابن عم له بالحيرة كان كثير المال فقال : يا ابن عم أعني على مخايلتي (والمخايلة المنافرة) ثم أنشد :

يا مال إحدى خطوب الدهر قد طرقت
يا مـــال ما أنـــتم عنهـــا بزحراح
يا مال جارت حياض الموت واردة
من بـــين غمـــر فخضنـــاه وضحضاح

فقال له مالك : ما كنت لأحرم نفسي ولا عيالي وأعطيك مالي ، فانصرف عنه وقال مالك في ذلك قوله :

إنا بنو عمكم لا أن نباعـــدكم ولا نجاوركم إلا على ناح
وقد بلوتك إذ نلت الثراء فلم ألقاك بالمال إلا غير مرتاح

. . ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه ، فقالت له امرأته : هذا والله أبو سفانة حاتم قد طلع ، فقال : ما لنا ولحاتم ، اثبتي النظر ، فقالت : ها هو . قال : ويحك هو لا يكلمني فما جاء به إلي ؟ فنزل حتى سلم عليه فرد سلامه وحياه ثم قال له : ما جاء بك يا حاتم ؟ قال : خاطرت على حسبك وحسبي . قال : في الرحب والسعة ، هذا مالي (وعدته يومئذ تسعمائة بعير) فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . فقالت امرأته :

يا حاتم أنت تخرجنا من مالنا وتفضح صاحبنا (تعنى زوجها) فقال : أذهبي عنك فوالله ما كان الذى غمك ليردنى عما قبل . وقال حاتم :

ألا أبلغا وهم بن عمرو رسالة ... فإنك أنت المرء بالخير أجود
رأيتك أدنى الناس منا قرابة ... وغيرك منهم كنت أحبو وأقصد
إذا ما أتى يوم يفـــرق بيننا ... بموت فكن يا وهم ذو يتأخر

ثم قال إياس بن قبيصة : احملونى إلى الملك وكان به نقرس فحمل حتى أدخل عليه . فقال : أنعم صباحاً أبيت اللعن . فقال النعمان : وحياك إلهك . فقال إياس : أتمد أختانك بالمال والخيل وجعلت بنى ثعل فى قعر الكنانة ، أظن أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم يشعروا أن بنى حية بالبلد ؟ فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفح الوادى دماً ، فليحضروا مجادهم غداً بمجمع العرب . فعرف النعمان الغضب فى وجهه وكلامه . فقال له النعمان : يا أحلمنا لا تغضب فإنى سأكفيك . وأرسل النعمان إلى سعد ابن حارثة وإلى أصحابه : انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه فوالله ما أنا بالذى أعطيكم مالى تبذرونه وما أطيق بنى حية . فخرج بنو لام إلى حاتم فقالوا له : اعرض عن هذا المجاد ندع أرش أنف ابن عمنا . قال : لا والله لا أفعل حتى تتركوا أفراسكم ويغلب مجادكم . فتركوا أرش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا : قبحها الله وأبعدها فإنما هى مقارف ، فعمد إليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس ،وسقاهم الخمر وقال حاتم فى ذلك :

أبلغ بنى لام فإن خيولهم عقرى وإن مجادهم لم يمجد
ها إنما مطرت سماؤكم دماً ورفعت رأسك مثل رأس الأصيد

وتقدم لنا جمعية بوكير Beaucaire صورة باهتة لهذه المباريات فى الكرم التى كثرت بين عرب الجاهلية . ويروى لنا ج — ج أمبير ما دار فى « بوكير » فيقول : « رأى القوم هناك عشرة آلاف فارس يتسابقون فى السخاء والتبذير ، فقد أخرج « الكونت دى تولوز » مائة ألف قطعة من الفضة ، وسلمها ل « ريمون داجو » Raymond d'Agout هبة خالصة ، فبادر هذا الأخير إلى توزيعها على فرسانه . وخطر لآخر أن يأمر بحرث حقل من الحقول ، وبذر ثلاثين ألف قطعة من الفضة فيه . ولم يدر ثالث كيف يثبت ازدراءه للمال ، فأمر بإحضار ثلاثين حصاناً فارهاً وأحرقها[1] . . . » وهنا يحق لنا أن نقول مع « لابرويير » : « ليس الجود أن تعطى كثيراً بقدر ما هو أن تضع الإحسان فى موضعه[2] » . ومن الصحيح أن تاريخ العصور الوسطى يتحفنا بأمثلة أخرى فردية لأريحية يقودها الذكاء ، فإن « فرواسار » Froissart — وهو يطنب فى ذكر مكارم « الكونت دى فوا » Comte de Foix التى نال نصيبه منها — يخبرنا بأن هذا الكونت فى عام ١٣٨٧ ، « قد أغدق بمحض إرادته — على

---

(١) منوعات من التاريخ الأدبى والأدب ، ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) راجع كتاب لا برويير : الخلائق (Les Caractères de La Bruyère) و « صوت لابرويير » للدكتور أنور لوقا ، ص ٩٨ (تحقيق) .

الفرسان والتابعين الذين كانوا يمرون ببلدة « أورتيه » ويقابلونه فى قصره ليرووا له الأنباء — الكثير ، فلقد منح أحدهم مائة فلوران والثانى مائتين والثالث ثلاثمائة كما أعطى الرابع أربعمائة والأخير خمسمائة حسب رتبهم ، فكان أن أنفق « الكونت دى فوا » على هؤلاء الذين ألموا به لأول مرة — كما روى لى القائم على أمواله فى « أورتيه » — مبلغ ألف فرنك ، دون أن يدخل فى ذلك ثمن الجياد والسروج التى وهبها إياهم »[1] .

على أن هذه الهبات لا يمكن أن تقارن بأريحية العرب ، فإنها لتبدو بالنسبة إليها بخلاً وتقتيراً ، لا يظهر أصحابه من « سادة الدنيا »[2] إلا « الشك فى نعمة الخالق »[3] .

فهذا عبد الله بن جعفر يجيب الحسين بن على بن أبى طالب ، وقد لامه على إسرافه فى البذل ، قائلا : « لقد عودنى الله أن يغمرنى بالنعم ، وعودته أن أغدق نعمه على خلقه ، وإنى لأخشى ، إذا أنا هجرت عادتى ، أن يهجر الله عادته » . كما يرد حسان بن سهل على من قال له « لا خير فى الإسراف » ردًّا أريباً إذ يقول : « لا إسراف فى الخير » .

ولقد كان أسلوبهم فى الإعطاء أروع من عطاياهم أيضاً . كان فيه نبل كبير ، ورقة جمة ، وشىء من التحفظ والتحرج ، وبعبارة موجزة

---

(١) عن « لاكورن » جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٢) قال عبد الله بن عباس : « الأسخياء سادة الدنيا كما أن الأبرار سادة الآخرة » .

(٣) قال المأمون : « ما البخل إلا دليل الشك فى نعمة الخالق » .

كان فيه حياء عذب . فهذا « يعطى كل ما عنده ويعتذر » ، وذاك

تراه إذا ما جئتـــه متهلـــلا كأنك تعطيه الذى أنت سائله[1]

والحق أنك لا تدرى من منهم الأسعد ، أهو الذى يعطى أم الذى يأخذ ؟ بل من هو المنعم الحقيقى ؟ فدعنى أنبئك أنه ليس — كما يدرك الناس — هو المعطى ، وإنما هو الذى يرضى أن يتقبل هباتك . وتذوق معى قول ابن عباس يردده الخليفة عبد العزيز بن مروان :

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرنى فى حاجة لم يكن لها سواى ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بما لى همه عن خناقه وزايله الهم الطروق المساور
وكان لـــه فضل على بظنـــه بى الخير إنى للذى ظن شاكر[2]

تلك كانت مميزات سخائهم ، وتلك كانت طريقتهم فى الجود . فكيف كان أسلوبهم فى استقبال الضيف ؟ كيف كانوا يزاولون هذا السخاء فى إيواء الغرباء وإطعامهم مجاناً ، وهو ما يعرف بالقرى ؟

لقد كان كرم الضيافة لدى الشعوب القديمة عادة متبعة ، بل واجباً ملزماً . يقول « تاسيت » فى ذكر الجرمان : « إن رب البيت يقدم أشهى الطعام لمن يقصدونه ، كما يتيسر له ، فإذا نضب الزاد عنده ، اقتادهم

---

(١) قول زهير فى هرم بن سنان .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٦٧

إلى أقرب بيت يجدون فيه الضيافة »[1] ومن ثم ، كان الضيوف لدى الجرمان موضع الترحاب . . .

ولدى البورجنديين ، نصت إحدى مواد القانون على أن « من يرفض لمغترب على سفر أن يقتات عنده وأن يصطلى ، فإنه يعاقب بغرامة قدرها ثلاثة دراهم . وإذا قصد المغترب بيت بورجندى وطلب الضيافة فدله البورجندى على بيت رومانى ، فعليه أن يدفع ثلاثة دراهم على سبيل الغرامة ومثلها على سبيل التعويض لصاحب البيت الذى دل عليه »[2] .

ولم يكن لدى العرب ما يشبه ذلك . فلقد كان القرى قاعدة مرعية لديهم ، ولكنه لم يكن إكراماً . لم يكن يفرضه نص من نصوص القانون ، وإنما كان قرى حرًّا ، حفيًّا ، سهلا ، يرجع إلى تقاليد ضاربة فى القدم ، وينسب رأساً إلى إبراهيم جد العرب . ويروى القرآن كيف أضاف إبراهيم من نزلوا عليه ، وإنه لمثل كريم قد احتذاه العرب دائماً ، ويجدر بأرباب البيوت وربانها ممن يحرصون على بساطة الترحيب ويسره أن يحتذوه أيضاً . قال تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .

---

(١) تاسيت : أخلاق الجرمان ، الفصل الحادى والعشرون .

(٢) أوجستان تييرى : رسائل فى تاريخ فرنسا ، ص ٨٢ .

فقربه إليهم قال ألا تأكلون . . . »[1] .

ويوجه مفسرو هذا النص أنظارنا إلى أن هؤلاء الضيوف المجهولين لم يكن عليهم أن يطرقوا باب العاهل ، ولا أن يخطروه بمقدمهم أو يستأذنوه ، بل دخلوا أيسر دخول ، لأن الدار كانت مفتوحة ترحب بالوافدين . وهم ينوهون كذلك بخروج إبراهيم خلسة ، إذ لم يرد أن يشعر ضيوفه لحظة بأنه مضى لإعداد ما يلزم لهم ، لئلا يساورهم الحرج . . . وهم يبرزون بهذا الصدد أدب إبراهيم الجم ، وهو الذى بدلا من أن يصدر أوامره إلى خدمه ، تجشم بنفسه عناء تهيئة المائدة . ولقد تخير إبراهيم من بين قطعانه — وتلك ثروته الوحيدة — أفضل وأثمن ما يذبحه . وعند ما رأى ضيوفه لا يقبلون على الطعام الذى عنيت هاجر بإعداده ، قال لهم : « ألا تأكلون ؟ » وكان بوسعه أن يخاطبهم بعبارة دارجة أو بعبارة متكلفة ، ولكنه لم يفعل ، لأنه يظن فى تواضع أن طعامه لا يستحق عبارات الثناء . وهكذا قال لهم العاهل فى بساطة : « ألا تأكلون » ؟ فكان ذلك بلا كلفة على الإطلاق .

وتبع العرب حرفيًّا هذا التقاليد النبيل . وأصبح كرم الضيافة الشرقى مضرب الأمثال . وكان هذا الكرم منذ العصور الوسطى محل تبجيل الفرسان المسيحيين[2] .

وكان كرم الضيافة — على الرغم من شيوعه بين العرب — فضيلة

---

(١) سورة الذاريات .

(٢) راجع جوتييه ص ٨٣ .

محمودة ، تضفى على صاحبها من الثناء بقدر ما يتحلى بها . وهنا ايضاً فرض التنافس على العرب سباقاً تجلى فى ضروب من العناية والإنعام والرقة ما كانت تخطر لسواهم على بال . وإذ كانوا جميعاً يكرمون الضيف ، فقد ظنوا فى أول الأمر أن بعضهم سيمتاز على بعض ويتفوق بأبهة الترحيب ، ولكنهم لم يلبثوا حتى لاحظوا أنهم فى حلبة الكرم جميعاً على حد سواء . ولقد كانوا جميعاً فى الواقع خليقين بأن يقولوا ، دون أن يشوب الكذب قولهم :

فنحن كماء المزن ما فى نصابنـــا كهام ولا فينا بعد بخيـــل[1]

وكان لكل منهم — أيا كانت قبيلته — أن يتمثل بقول حاتم لغلامه « يسار »[2] :

أوقـــد فإن الليل ليـــل قـــر والريح يا غلام ريح صر
عسى يرى نارك من يمـــر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

بل ولقد كان أشدهم فقراً يعرف كيف يكرم الضيف غاية الإكرام ، أما كانوا يعمدون إلى ذبح الدابة الوحيدة التى يقتنونها لكى يشبعوا ضيوفاً عابرين ؟

وإذ لمس العرب أن بعضهم لن يمتاز على بعض بأبهة الضيافة سعوا إلى أن يتفوق بعضهم على بعض بلطف الاستقبال والحفاوة . ولكنهم هنا أيضاً كانوا على حد سواء ، وكانوا يستطيعون أن يتأسوا بقول حاتم أيضاً :

(١) للسموءل . انظر ديوان الحماسة ج ١ ص ١١٥ .
(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٣٣

أضاحك ضيفي قبـــل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وبلغ الأمر في كل مكان أن استحال التمييز بين المضيف والضيف.

وظلت المسألة بلا حل. فلقد كان كرم الضيافة عاماً سخياً حفيا في جميع أرجاء بلاد العرب على السواء ، ولم يكن بد مع ذلك من أن يجد المرء سبيلاً إلى أن يفعل أكثر إن لم يفعل خيراً من سواه . ومنذ ذلك الحين ، حاول البعض أن يتفوقوا على البعض بعدد من يستأثرون باستقبالهم والإنفاق عليهم من الضيوف . ومضى القوم يستدعون الضيوف ويحشدونهم. ولما كان يتعذر على المرء بث الدعاية لما يدخر من قرى للنزلاء — إذ كان هذا القرى واحداً بعينه في كل مكان — فلقد راح يتفنن في جذب خطا الرحالة نحو داره . وبدأ برفع الأعلام على الخيام ، حتى يستطيع السائر أن يتبين من بعيد « الفندق » الذي ينتظره . غير أن الأعلام لا تكاد تظهر للبصر في الليالي التي يغيب فيها القمر ، فعمد القوم إلى إيقاد النار على التلال المجاورة . ولم ينسوا المكفوفين ، فأوقدوا لتنبيههم خشباً عطراً . . . بيد أن جميع هذه الإجراءات لم تعتبر كافية مرضية ، فاستعانوا بصديق الإنسان ، وربطوا حول القبيلة في مواضع متباعدة كلاباً تطعم أشهى الطعام إذا جلبت ضيفاً، فكانت تنبح . وكان هذا النباح دعاء، ودليلاً يهدي الحاج والمتنقل . فما كان عليهما إلا أن يصيخا إلى هذه الأصوات ويتبعاها ليضمنا عشاء ممتازاً وحفاوة أعظم . ولقد أمعن حاتم الطائي في تيسير

السبيل ، فكان يرسل عبيداً للقاء المسافرين ، وكان يعتق العبد إذا أسعده طالعه بإحضار ضيف إلى الدار . وأما عبد المطلب الذى لقب « شيب الحمد » فقد مد أطراف كرمه حتى طيور السماء ، إذ كان يأمر بأن تحمل إليها بقايا مآدبه . . .

وارتفع قدر القرى وإكرام أكبر عدد من الضيوف حتى أصبح مزية الرؤساء . ولما لم يستطع « كليب » ، وهو رئيس قبائل « معد » كلها ، أن يفعل فى هذا المضمار أكثر أو أفضل من أقل رعاياه شأناً ، بدا له أن ينتزع من مواطنيه حق القرى ، وأراد أن يكون وحده ولى النعمة والإغداق ، وأن يحتكر الكرم احتكاراً . وياله من جنون لو فيه حتفه ! فإن شر طغيان يضيق به العربى ، ليس طغياناً يحرمه ماله وحياته ، وإنما هو الجور الذى يحرمه مزاولة أقدس حقوقه وأحب فروضه والواجب الذى يجد فيه البركة ، ألا وهو القرى ، وإكرام من يرزق بهم من الضيوف .

على أننا كما نرى فى جنة من جنان الورد ، بعض الورود تفوق أخواتها بحسنها ، ورقة شذاها ، ورونق لونها ، وما تفيض به نفسها الحاوة من سحر وفتنة ، فإننا نرى كذلك فى حقل الجود العربى المزدهر رجالاً استحقوا بين شعب بأسره من الكرماء لقب الكريم ، وقد خلعته عليهم عطاياهم بوفرتها وتنوعها واتصالها ورقيها . ومن أولئك ، كان فى الجاهلية حاتم الطائى وكعب ابن مناة وهرم بن سنان وقيس بن سعد ، وفى الإسلام عبيد الله بن العباس ، وسعد بن العاص ، وعبد الله بن جعفر ، ومعن بن زائدة ، والفضل البرمكى

وهيهات أن تتم القائمة ، فإن الكرم العربى كوردة « أريحا » تحيا دائماً حياة متجددة رغم ما يبدو من أنها قد جفت .

وفيما يلى — بدلاً من إيراد طرائف ولمحات تصور الأريحية (وكان ينبغى ذكرها جميعاً لا الاقتصار على مختارات منها)[1] — أبيات « حاتم » التى وجهها إلى خطيبته « ماوية » والتى تبين كيف كان هذا الكريم يفهم معنى الغنى وفيم كان يستخدمه :

أماوى قد طال التجنب والهجـــر ... وقد عذرتنا عن طلابكم العذر
أماوى إن المـــال غاد ورائـــح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إمـــا مانـــع فمبـــين ... وإما عطاء لا ينهنهـــه الزجـــر
أماوى إنى لا أقـــول لسائل ... إذا جاء يوما حل فى مالى النزر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صدای بقفرة ... من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلت به صفر
إذا أنا ولانى الذين يلومنـــنى ... بمظلمـــة لج جوانبهـــا غبر
وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم ... يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر
أماوى إن المـــال مال بذلتـــه ... فأولـــه شكر وآخـــره ذكر

---

(١) راجع من أمثلة الكرم فى كوسان دى برسفال جـ ٢ ص ٥٧٣ و ٦٠٠ وما يليها ، قصة « زيد الكيل » ، وفى بيرون : النساء العربيات ص ١١٤ وما يليها ، وفى المسعودى جـ ٥ و ٦ و ٧ و ٨ ، وفى العقد الفريد ، وفى الأغانى ، الخ .

وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر
فإنى وجدى رب واحـد أمـه أجرت فلا قتل عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهوداً وقد أودى بإخـوته الدهر
غنينـا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأوا على ذى قرابـة غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر[1]

ولن نجد خاتمة لهذه الدراسة عن كرم اليد خيراً من قول النبى[2] « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول إحداهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

٢ ـ كرم النفس

« يرجع تسامح العرب إلى أصول بعيدة ، لأن شعباً يحرص على الحرية هذا الحرص لا يسيغ الجور فى شئون الإيمان[3] » . وما أكثر الشواهد التى تدل على قلة اكتراث العرب بالمسائل الدينية . فلقد كانوا يكيلون لما يعبدون من الأصنام عبارات التهكم البارع ، بل اللاذع ، وكانوا يتلقون بتشكك لا يخلو من المكر ما يطلع به الكهان عليهم من عقائد جديدة ، وها هوذا أحدهم يرجم صنما لأنه رأى فى اللحظة التى

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٣٥ .
(٢) صحيح البخارى ، جـ ٤ ص ١٤٢ (طبعة كتاب الشعب) .
(٣) دوزى .

تأهب فيها لنحر شاة لذلك الصنم أن قطيعه قد تشتت ، وآخر يشتم صنما ثانيًا عندما حج إليه يسأله هل ينبغى أن يثأر لمقتل أبيه فأجابه بالنفى . ولقد اعتاد ملك اليمن ابن عبد كلال (من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٠) أن يقول : « إننى أملك على الأبدان لا على العقول ، فليطع رعاياى حكمى ، وأما عقائدهم فإن الإله الخالق هو الذى يحكمها[1] » .

وهل احتفظ العرب بهذه الحرية التى تدل عل كرم النفس بعد أن انضووا تحت لواء الإسلام ؟ لقد سبق لنا أن أوضحنا كيف كان المسلمون يسلكون دائما مسلك التسامح حيال أعدائهم الذين كانوا يعتبرونهم « كفارا » ، فهل كانت تلك هى سيرتهم أيضا مع رعاياهم غير المسلمين ؟

إن التاريخ يظهرنا على خلفاء كان يحوطهم الأطباء والفلكيون والشعراء والعلماء من النصارى واليهود ، وكانوا يغدقون عليهم أعظم آيات التكريم ، ويمعنون فى ذلك إلى حد تفضيلهم على وزرائهم وأصفيائهم . وما أكثر مثل هذه الطرائف التى تشهد بنفحات التبجيل والتقدير التى كان يحظى بها أولئك لدى « أمير المؤمنين » .

فعندما أحس طبيب المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥) بدنو أجله ، استأذن الخليفة فى أن يعود إلى بلاده حتى يدفن بين أهله . فحاوره قائلا :

— أسلم حتى نلتقى فى الفردوس

فرد المريض قائلا :

---

(١) كوسان دى برسفال جـ ١ ص ١١١ .

— إنى أوثر أن الحق بأجدادى ، سواء أكانوا فى السماء أم فى الجحيم .

واستظرف المنصور رده فضحك ، وأنعم على الطبيب بعشرة آلاف دينار من الذهب ، وأمر له بحراس يرافقونه حتى مسقط رأسه[1] .

وعندما حج هرون الرشيد (٨٧٦ — ٨٠٩) دعا فى صلاته جهرا لطبيبه جبريل بن بختيشوع ، فقال له بعض من لاحظ ذلك :

— يا أمير المؤمنين ، إنك تدعو فى صلاتك لنصرانى .

فأجاب أمير المؤمنين :

— أجل ، فبفضله تمتلى الصحة ، وعلى صحتى يتوقف عز المسلمين ، فخير لكم جميعاً أن يعمر طبيبى ويسعد[2] .

ولقد ذهب المعتصم (٨٣٣ — ٧٤٧) إلى أبعد من ذلك المدى ، إذ حدث عندما توفى طبيبه وصديقه — وقد اعتاد أن يدعوه « أبى » — أن أمر بتشييع جنازته « على طريقة النصارى بالشموع والبخور » ، وتبع المشهد بعينيه من إحدى نوافذ قصره وهو يبكى كالطفل أمام الشعب المحتشد[3] .

---

(١) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، ص ١٨ .

(٢) طبقات الأطباء جـ١ ص ١٣٠ ، وزيدان . تاريخ التقدم الإسلامى جـ٣ ص ١٦٣ .

(٣) طبقات الأطباء ، ص ١٦٥ ، وزيدان جـ٣ ص ١٦٥ .

وتتناول هذه النوادر الأطباء خاصة ، غير أننا نستطيع أن نورد هنا ما لا يقل طرافة عن العلماء والشعراء والمترجمين . . . وحسبنا أن نقول إن أكثر الخلفاء — خلفاء بغداد وقرطبة والقاهرة على السواء — قد حموا العلماء وأهل دينهم مهما كانت عقيدتهم . ومن ناحية أخرى كانت مدارس العرب مفتوحة للجميع من فقراء وأغنياء ، من نصارى ويهود ومسلمين . وفى القرن العاشر رحل إلى طليطلة الراهب جربير (Gerbert) ، وهناك درس الرياضة والتوقيت والسحر على أيدى أساتذة عرب مدة ثلاث سنين ، ويقول « رينو » إن تقدمه فى هذه المعارف قد أوهم العامة بعد عودته أنه ساحر ، ثم أصبح « بابا » باسم سيلفستر الثانى[1] . وكذلك يذكر أحمد المقرى — الذى أفرد فصلا لمن برز من اليهود والنصارى فى الأدب العربى — عددا كبيرا من الأدباء الإسبانيين اشتهروا بروعة شعرهم ونثرهم[2] .

وهل بنا حاجة إلى أن نقول إن هذا التسامح ، بل حسن الرعاية ، كان يشمل الفلاسفة والملحدين من بين المسلمين أنفسهم ؟ فإن المأمون — وهو الذى فرض على الإمبراطور اليونانى ميخائيل الثانى أن يرسل إليه بدلا من الجزية عددا من المخطوطات القديمة — قد أمر بسجن الفقهاء الذين

---

(١) انظر فيلمان (Villemain) : منهج الأدب الفرنسى جـ ١ ص ١١٩ . ورينو (Reinaud) غزوات الأندلسيين ص ٢٩٢ ، وسيسموندى جـ ١ ص ٩٧ .

(٢) انظر فوريل جـ ١ ، ص ٤٢٠ وما يليها .

حاربوا فلاسفة عصرهم باسم الدين[1] . وبعد أن حاصر صلاح بن مردس بلدة المعرة ، ارتضى أن يرفع عنها الحصار وأن يعفو عن أهلها لكى لا يسىء إلى أبى العلاء المعرى — فولتير العرب فى القرن العاشر[2] .

٣ — كرم القلب

كان الحلم من أهم وأعظم الصفات الست التى كان ينبغى أن يتحلى بها كل من يطمح إلى أن يكون سيد قبيلته[3] . وفى ذلك ما يدل على مكانة هذه الفضيلة بين العرب ، فضيلة الصفح والمغفرة ، وهى التى تتمثل فيها روح المسيحية بوجه خاص . والحق أنهم لم يمارسوها كما أتى بها الإنجيل ، ولم يبلغ بهم الأمر أن يقدموا خدهم الأيمن لمن لطمهم على خدهم الأيسر ، فلقد كان مثل هذا السلوك خليقاً بأن يوصم فى عرفهم بالضعف ، وما كان العرب بالذين يرتضون أن ينعتوا بالضعف ، وإنما كانوا يتعقبون المذنب ولا يعفون عنه حتى يتمكنوا منه . وهكذا كان الحلم لديهم تاج القوة ، فليس من الحلم أن يعفو عن مذنب عاجز « عن تأديبه »[4] . إن

---

(١) راجع زيدان جـ ٣ .

(٢) على بن يوسف القفطى ، عن محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ١٠٦ .

(٣) راجع فيما سبق باب « تعظيم السلف » .

(٤) قال معاوية « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة » .

أولئك الذين كانوا يطبقون شريعة القصاص دون هوادة ولا رحمة فى أكثر الأحيان ، ولا يكتفون عن عين بعين وعن سن بسن بل يضاعفون الثأر والبطش[1] كانوا يعرفون ، عندما يتغلبون على عدوهم ، كيف يتغلبون على أنفسهم ويصفحون . لقد كانوا يحرصون على أن يصفحوا حرصهم على أن يثأروا . وكلما ثقل الذنب ، رق حلمهم وكرم .

وبلغ من انتشار هذه العاطفة النبيلة بينهم أن صيغت قبل ظهور الإسلام فى أمثالهم . فلقد كانوا يقولون : « لا عظمة مع الحقد » وكذلك « إذا غلبت فكن عفوًا » وكانوا يؤكدون أن « الكريم من يغفر الذنوب ويستر العيوب » .

ونمت مع الإسلام هذه الأخلاق الحميدة ، فلقد استمد المسلمون من رغبتهم فى إرضاء الله حافزًا جديدًا إلى السمو .

وهذا على بن أبى طالب يوصى وصية جديرة بأن تصدر عن بطل من أبطال المسيحية فى عهدها الأول « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه » .

وسأل أحدهم الوزير الفضل بن يحيى « ما الفروسية ؟ » فأجاب « العفو عن الذنوب » .

وعندما أمر هارون الرشيد بإعدام عميد الطوسى . طفق الشق ينتحب فسأله الخليفة :

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم : ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ـ أتبكى خوفا ؟

فأجابه :

ـ كلا فسوف نموت جميعا ، وإنما حزنًا للخروج من الدنيا وقد أغضبت مولاى .

فابتسم الخليفة وأمر بإطلاق سراحه قائلا :

ـ ما أيسر أن يغتر الكريم بمكارمه !

وما أكثر ما كان يحلو له أن يغتر على هذا النحو[1] !

وإذا كنا لا نستطيع أن نورد كل ما قيل ، فإننا نذكر من جوامع الكلم هذه العبارة التى تنسب إلى معاوية بن أبى سفيان ، مؤسس الأسرة الأموية : « لا أطيق أن يكون على الأرض جهل يعيى به جلدى ، ولا ذنب لا يحتويه حلمى ، ولا حاجة لا يسدها جودى » .

ونقتصر هنا على إيراد واقعتين للتدليل على هذه المبادئ النبيلة . ولقد انتخبناهما من بين آلاف النوادر التى تروى بهذا الصدد ، لأنهما ، إلى جانب إظهار الكرم ، تظهر الأولى منهما إرهاف ضمير رجل كعمر ابن الخطاب اعتاد القوم أن يصوروا شدته وصرامته ، وتظهر الثانية كيف

---

(١) يورد « فلوريان » (Florian) عن « هربلو » (Herbelot) (المكتبة الشرقية) و « ماريني » (Marigny) (تاريخ العرب) قول المأمون :

« آه لو عرف الناس كم يسرنى أن أغفر لأقبل جميع من أذنبوا إلى يعترفون بذنوبهم » . راجع المستطرف ص ٢٥٧ .

كان الندماء يلقون الدروس على الملوك :

لقى عمر بن الخطاب رجلا مخموراً فأمر بأن يزج به فى السجن ، فسبه المخمور سباً فاحشا . فقال عمر : « إنى لأعفو عنك » ، فعجب أصحاب عمر من أن يطلق سراح رجل يقذع فى سبه ، غير أنه أجابهم : « لقد أفلح فى أن يغضبنى ، وأخشى إذا عاقبته أن أكون متشفياً لا عادلا ، وأن أكون إنما أثأر لنفسى ، وليس لى أن أثأر من مسلم » .

واحتد الخليفة عبد الملك بن مروان يوماً على لئيم هزئ به فقال : « لو مكننى الله منه لفعلت به كذا وكذا » . ولما انتهى الأمر بإلقاء القبض عليه قال للخليفة أحد جلسائه ، « يا أمير المؤمنين ، لقد حقق الله رغبتك ، وعليك الآن أن تفعل ما يرضى الله » . وأجاب الخليفة ، وهو ما زال تحت وطأة غضبه : « عفوت عنه ، وليصرف لهذا الرجل من الذهب ما يهدئ روعه . » ولا تذكر القصة كم لزم من الدنانير لإدخال الطمأنينة على قلب ذلك الرجل المسكين ، ولكننا نظن أن فرائصه ظلت ترتعد حتى ملأ الذهب جيوبه . . .

على أن هناك لوناً آخر من الحلم يتجلى فى حسن الرعاية التى يوليها المرء خصمه ، وتلك هى الإنسانية فى معاملة الأسير ، وهذا النبل إزاء العدو ، وذلك الأدب الجم الذى يتحلى به رجال الحرب ، وأسلوبهم الشهم فى تحية الشجاعة حيث خانها الحظ ، وفى الاعتذار الودى عن الفوز على ند ما كان أحراه مثلهم بالنصر لو لم يجانبه التوفيق فى المعركة . .

لقد حصر المنصور (٩٧٦ – ١٠١٠) يوماً فى شعب فرقة كثيرة النفر من الأسبانيين ، فأصدر إليهم الأمر بإلقاء سلاحهم ، ولكنه إذ رآهم مصممين على الهلاك دون التسليم ، فتح صفوف جنوده وتركهم يلحقون بالجيش الأسبانى ، مؤثرا أن يرسل للعدو نجدة على أن يأمر بتذبيح كل هؤلاء الرجال الباسلين . . . ولقد أنصفه الأسبانيون ، فكتب موسدن (Mosden) يقول : « لقد كان يدمر بالحديد والنار المدن التى كانت تقاوم جيوشه ولكنه لم يأذن قط بأن يلحق أهون شر بالمدن التى كانت تستسلم طائعة[١] » .

وفى عام ١١٩١ ، ترك « فيليب أوجوست » جيش الصليبيين وحضر إلى صور يستعد لعودته . وهناك أرسل إليه صلاح الدين وفداً رسمياً ليحييه ويقدم له من الهدايا ما يجدر بملك عظيم ، ولقد دأب هذا السلطان على أن يعطى ولو أعداءه ما يدل على بذخه[٢] .

وأدخل مرض « ريشارد قلب الأسد » الحزن على قلب صلاح الدين وأخيه ، اللذين ظلا يظهران الود نحو خصم صريح شجاع . وكان « ريشارد » فى سكرات الحمى يطلب فاكهة ، فجعل صلاح الدين يرسل إليه الكمثرى والخوخ والثلج الطازج الذى يأتى به رجاله من الجبل كل يوم[٣] .

---

(١) ل . فياردو : مقال فى تاريخ العرب والأندلسيين ، سنة ١٨٣٣ ج ١ ، ص ١١٢ .

(٢) ماران : تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٣) ستانلى لين بول ص ٣٥٥ .

ويحكى أنه عندما أسر أهل دمياط « جان دى بريين (Brienne Jean de)، واقتادوه لدى الملك الكامل ، طفق يبكى . ونظر السلطان إليه وسأله عن سبب بكائه فأجابه : « من حقى يا مولاى أن أبكى وقد رأيت الشعب الذى عهد الله به إلى يهلك بين الأمواه ويموت جوعا » . فرق السلطان له ، وبكى لبكائه ، وأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء ، فعل ذلك أربعة أيام متتالية[1] .

ويروى أيضاً أن الأمير ابن رائق ، عقب التحامه بجيوش الأخشيد فى موقعة لاجون ، كشف فى ميدان القتال بين جثث القتلى جثة أخ للأخشيد . ويقال إنه اغتم لذلك ، حتى إنه أرسل فى الحال ولده لخصمه ، فدية وتعويضا . وتأثر الأخشيد ، ولم يرد أن يتخلف فى مجال الكرم ، فخلع على الفتى خلعة نفيسة ، ورده إلى أبيه معززا وتم — كما يتم فى الروايات طبعا — اقتران الفتى بابنة عدوه ، وهكذا أقبلت أواصر الود والمصاهرة تدعم معاهدة التحالف التى أوحت بها إلى القائدين الشهيرين عواطف الفروسية[2] .

ولا يظنن القارئ إذ يلاحظ أننا استشهدنا هنا وفيما سبق بأمثلة مستقاة من العصر الإسلامى ، أن عرب الجاهلية لم يعرفوا كرم القلب . فلقد

---

(١) جوستاف شلومبرجيه (G. Schlumberger): قصص من بيزنطة والحروب الصليبية .

(٢) سنانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ص ٨٣ .

كان كرم القلب — على العكس — سجية شائعة بينهم . ولما كانوا فى حرب دائمة ، يضرب بعضهم بعضا ، وينتصرون تارة وينهزمون أخرى ، فقد كان يحدث أن يغيث المكروب منهم نصير وفى يذكر له يداً فى محنة سلفت . وها هى ذى فى ختام حديثنا لوحة تصور خلق القوم ، تمثل الكرم ، وتبرز فى الوقت ذاته الشهامة الفرسانية ، حوالى القرن السادس :

خرج دريد بن الصمة فى فوارس بنى جشم ، حتى إذا كانوا بواد لبنى كنانة يقال له الأخرم ، وهو يريد الغارة على بنى كنانة ، وقع له رجل من ناحية الوادى معه ظعينة ، فلما نظر إليه ، قال لفارس من أصحابه : صح به أن خل عن الظعينة وانج بنفسك ، وهو لا يعرفه فانتهى إليه الرجل وألح عليه ، فلما أبى ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة :

سيرى على رسلك سير الآمـــن سير رواح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شـــأنى أبلى بلائى واجترى وعاينى

ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه ، فأعطاه الظعينة . فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ، فرآه صريعا . فصاح به فتصامم عنه ، فظن أنه لم يسمع فغشيه ، فألقى الزمام عليها ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول :

خل سبيل الحرة المنيعـــة إنك لاق دونها ربيعة
فى كفـــه خطيـــة منيعة أولا فخـــذها طعنة سريعة
فالطعن منى فى الوغى شريعـــة

فلما أبطأ على دريد ، بعث فارسًا آخر لينظر ما صنعا ، فانتهى إليهما فرآهما صريعين ، ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له الفارس : خل عن الظعينة ، فقال لها ربيعة : اقصدى قصد البيوت ، ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عاجل رمح يابس

ثم طعنه فصرعه فانكسر رمحه ، فارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق بهم فوجد ربيعة لا رمح معه وقد دنا من الحى ، ووجد القوم قد قتلوا . فقال له دريد : أيها الفارس إن مثلك لا يقتل ، وإن الخيل ثائرة بأصحابها ، ولا أرى معك رمحا ، وأراك حديث السن ، فدونك هذا الرمح ، فإنى راجع إلى أصحابى فمثبط عنك . فأتى دريد أصحابه فقال : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم ، وانتزع رمحى ولا لكم فيه . فانصرف القوم وقال دريد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارسًا لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل[1]

(١) الأغانى جـ١٤ ص ١٢٩ وما يليها .